الفصل الرابع عشر
مسيرة الجوع

ذهب الأمير فواز إلى دمشق قبل فترة ليلتحق بقبيلته المهاجرة عندما تصل منطقة الرويشدات، على أن يتم ذلك قبل نهاية الأسبوع. وانتهزتُ هذه الفرصة القصيرة للقيام برحلة إلى الحرّة مع فارس وعدد قليل من أتباعه. ولم أستمتع بهذه الرحلة كما لم تستمتع بها الجمال على الرغم من أنها كانت جمال ركوب نشيطة.

والحرّة صحراء حجرية طويلة تمتد من جبل الدروز (أو حوران) باتجاه الجنوب الشرقي، وتتاخم النجد الصحراوي في الجزيرة العربية، وتشرف عليها الجبال البركانية في الجزء الشمالي الغربي. ويقطع هذه الصحراء شبكة متقاطعة من طرق الجمال القديمة، لأن في الحرة تتقاطع طرق كل من القبائل البدوية الغربية والشرقية، والمنطقة حتى جبل عنزة، مشهورة بكونها أبرد المناطق في شمال الجزيرة العربية. إنها ترتفع حتى ثلاثة آلاف قدم، وهي معرضة لعدة أشهر من السنة للعواصف الشمالية الشرقية الباردة والرياح القاسية إذ تهبط الحرارة إلى ست درجات مئوية تحت الصفر أحياناً.

في هذا العام كان الربيع معتدلاً في المنطقة كلها. ولكن السطوح الحجرية المتماوجة الريشة لم تبد سوى واحات من الخضرة الضئيلة قرب البرك المطرية

في الأماكن المنخفضة. وفي بقية أجزاء المنطقة ساد الصوان المنبسط البراق والحصى الأملس والحقّاف المنخور. وغطت الشظايا البنيَّة والرمادية والزرق والسود الملطخة أرض الحرّة كما لو كانت طبقة من الحراشف عمقها طبقة أو طبقتان. لو أزحت هذه الحراشف لوجدت تحتها رملاً أصفر أو أحمر مخلوطاً بالصوَّان. وتحت وهج الشمس لمعت الأرض بشكل لا يحتمل، حتى إن المرء لا يستطيع النظر إليها دون أن تؤلمه عيناه. أثناء مسيرتنا فوق الأرض الحجرية التي جعلت سير الجمال صعباً. استمر صوت المضغ والقعقة وانزلقت أخفاف الجمال الجلدية فوق الحجارة الملساء. وكثيراً ما افتقدت الجمال مواطئ أقدامها. هذه الصحراء القاسية لم تدخل على قلبي أي سرور على الإطلاق ولكن علي أن أعترف أن الهواء كان نقياً ومنشطاً.

وعندما وصلنا الرويشدات في اليوم الموعود وجدنا فوازاً قد عاد من دمشق، كما تجمعت هناك معظم قبيلته، لأن الرويشدات بدت المنطقة الوحيدة في شمال الجزيرة العربية التي يوجد فيها ماء المطر في هذا الربيع. وهنا كان الرولة يسقون جمالهم ربما للمرة الأخيرة قبل وصولهم إلى آبار **أبي رجمين** على بعد ٢٦٠ ميلاً. واجهت الرولة **مسيرة شريرة**، وهي مقامرة حياة أو موت. لم يكن باستطاعتهم التراجع لا إلى وادي السرحان ولا إلى حوض الجوف. عليهم التقدم عبر المناطق المعادية تحت تهديد المناوشات، وربما الحرب الحقيقية مع القبائل البدوية المعادية لهم. وبدا أن الأخطر من ذلك كله بالنسبة للرولة هو الصراع مع الطبيعة. ما زالت المراعي القليلة تغطي المرتفعات الصخرية والهضاب وما زالت سيقان النباتات الصغيرة تحتفظ بالقليل من الرطوبة، مما جعل الجمال قادرة على الحصول على القليل من الغذاء والرطوبة. ولربما أسبغ الرحمن الرحيم على الرولة بعض نعمه أثناء مسيرتهم إلى الشمال، وأنزل عليهم المطر الذي يتوقون إليه. لم تهطل الأمطار لمدة أسابيع كثيرة ما عدا في منطقة الرويشدات، حيث هطل المطر مدراراً، وحيث امتلأت المنخفضات بالماء والبرك الصغيرة في كل أنحاء المنطقة.

وأخيراً حان موعد الرحيل. وعجّ الحوض الصحراوي بالحياة والقطعان المتحركة بكتلة هائلة، وعلا ضجيج أكثر من ثلاثمئة ألف حيوان نشرت في المنطقة كلها رائحة مسكية نفّاذة.

وعلى جانبي القطعان سارت الجمال المثقلة بالخيام والمعدات والأطعمة وما إلى ذلك، تحت حراسة سائقها، وعلت بينها مئات الهوادج: **مشاب** الشيوخ والأغنياء ـ تلك الخيام الراحلة ـ ذات القرون المنحنية والمتوازنة فوق ظهور الجمال. داخل هذه الهوادج مزين بالأقمشة الحريرية والكشمير الغالية، وأرضها وجوانبها مغطاة بالسجاد ومحاطة بالوسائد. وتراقصت جوانب هذه الهياكل الكبيرة الهوائية فوق بحر الحيوانات المتلاطم كأجنحة الفراشات الكبيرة.

اندفع نهر الجمال من الحوض بلا انقطاع ليتوحد في موجة مد هائلة عرضها أكثر من خمسة أميال. وبدأت صفوف قوافل الإبل الهائلة بالتشكل. وبطاقةٍ لا تعرف الكلل. وفي هذا الحر والغبار والصخب تدافع الفرسان من جانب إلى جانب فوق الخيول التي تصببت عرقاً يوجهون القطعان إلى حيث يجب أن تكون. وتجاوب الهواء مع صياح الجمال وصهيل الخيل وصياح ولعنات الرعاة وصرخات النساء ونحيب الأطفال. وركب الرجال المسلحون يرافقون عائلاتهم المتناثرة هنا وهناك بين الخطوط المتسعة بين الجمال المهاجرة. وهكذا فمن الفوضى الظاهرة ظهر نظام صارم من الهجرة القبلية العامة يندفع إلى الأمام إلى البرِّية المجهولة.

وعندما تقدمت بصحبة الأمير فواز بين الصفوف السائرة تلقينا التحيات من جميع الجهات. هرول رجال القبيلة على خيولهم ليتمنوا الحظ والسعادة للأمير. ترجل العبيد وقبلوا قدميه أو وضعوا وجوههم عليها للبركة. وأطلقت النساء والفتيات الزغاريد وصحن بابتهاج: «اللّه يقوّيك! تقدم على بركة اللّه يا عاطي: عاش أميرنا! حقّق الله الآمال!».

* * *